مقدمة المحقق

ابن الأبار وكتابه تحفة القادم

لعل خير ترجمة في المصادر القديمة لأبي عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار هي تلك التي كتبها ابن عبدالملك المراكشي[1]؛ ورغم أن هذا المؤلف شديد التعقب لابن الأبار ولأخطائه وأوهامه في كتاب التكملة، فإنه كان يدرك تماماً مكانته العلمية حين يقول في وصفه: «وكان آخر رجال الأندلس براعة واتقاناً، وتوسعاً في المعارف وافتناناً،

(١) الذيل والتكملة ٦: ٢٥٣ ـ ٢٧٥ وانظر ترجمته أيضاً في اختصار القدح المعلى: ١٩١ (وعنه النفح ٣: ٣٠٣ وانظر أيضاً ٢: ٥٨٩) ورحلة ابن رشيد (مخطوط الاسكوريال) وعنوان الدراية: ٣٠٩ وأزهار الرياض ٣: ٢٠٤ والمغرب في حلى المغرب ٢: ٣٠٩ والوافي بالوفيات ٣: ٣٤٤ والبدر السافر للأدفوي: ١٢٠ وعقود الجمان للزركشي: ٢٨٧ وفوات الوفيات ٣: ٤٠٤ (وخلط بينه وبين أبي جعفر ابن الأبار أحمد بن محمد الخولاني) وعبر الذهبي ٥: ٢٤٩ وسير أعلام النبلاء ٢٣: ٣٣٦ (وهو ينقل عن صلة الصلة لابن الزبير) وشذرات الذهب ٥: ٢٧٥.
ولم يفصل ابن عبدالملك في خبر مقتله، واختصر ذلك في جملة «نقم عليه خوض تاريخي نسب إليه» وقد فصّل ابن خلدون الخبر في تاريخه، وعنه نقله المقري في أزهار الرياض.
وفي العصر الحديث كتبت عنه دراسات مختلفة منها كتاب لعبدالعزيز عبدالمجيد (تطوان ١٩٥١) ورسالة ماجستير كتبها ماهر زهير جرار بالجامعة الأمريكية (١٩٨٣) ورسالة ماجستير بالجامعة الأردنية لحسن محمود افليفل (١٩٨٢) وكذلك انظر المقدمات على الحلة السيراء والمقتضب من تحفة القادم واعتاب الكتاب ودرر السمط ومقدمة ديوانه الذي ظهر سنة ١٩٨٥ (تونس) بتحقيق الدكتور عبدالسلام الهراس، وللمحقق نفسه رسالة عنه نوقشت سنة ١٩٦٦.

محدثاً مكثراً، ضابطاً عدلاً ثقةً، ناقداً يقظاً، ذاكراً للتواريخ على تباين أغراضها، مستبحراً في علوم اللسان نحواً ولغة وأدباً، كاتباً بليغاً، شاعراً مفلقاً مجيداً».

وفي هذه الترجمة عدَّ ابن الملك شيوخ ابن الأبار الذين أخذ عنهم بمختلف طرق التحمل: قراءة وسماعاً ورواية وتلاوة وإجازة. . . سواء أكانوا أندلسيين أو مشارقة؛ وذكر أسماء من روى عنه؛ وواضح أن ابن عبدالملك قد اعتمد في هذا التعداد المسهب على كتابين من كتب ابن الأبار هما «معجم شيوخه» و «برنامج رواياته».

وتتميز هذه الترجمة أيضاً بذكر أكبر عدد من أسماء كتبه، فقد ذكر المؤلف أن مجموع الكتب التي ألفها ابن الأبار ينيف على الخمسين، أورد منها أسماء خمسة وثلاثين كتاباً تناولت موضوعات شتى كالحديث وتراجم رجاله والمعاجم وكتب تراجم عامة وأخرى خاصة، ومؤلفات أدبية، ويلفت النظر من بين هذه الكتب ما ألفه ابن الأبار في معاجم الشيوخ والأصحاب، فإذا استثنينا الكتابين اللذين ألفهما في تصوير تحصيله وهما معجم شيوخه وبرنامج رواياته وجدنا له سبعة معاجم، وهي:

١ ــ معجم أصحاب أبي عمر ابن عبدالبر.
٢ ــ معجم أصحاب أبي عمرو المقري.
٣ ــ معجم أصحاب أبي علي الغساني.
٤ ــ معجم أصحاب أبي داود الهشامي.
٥ ــ معجم أصحاب أبي علي الصدفي.
٦ ــ معجم أصحاب أبي بكر ابن العربي.
٧ ــ معجم شيوخ أبي الحسين ابن السراج.

وقد كتب عدداً من الكتب في تراجم شعراء الأندلس من أهمها:
١ ــ الحلة السيراء في شعراء الأمراء.

٢ ــ خضراء السندس في شعراء الأندلس (من أول فتحها إلى آخر عمره).

٣ ــ إيماض البرق في شعراء الشرق (يعني شرق الأندلس).

٤ ــ تحفة القادم.

وهذا الكتاب الأخير لم يصلنا كاملاً، وإنما وصلنا في صورة مقتضب نشره أولاً الفريد البستاني في مجلة المشرق (المجلد: ٤١) بيروت ١٩٤٧ ثم أعاد نشره الأستاذ إبراهيم الأبياري (القاهرة ١٩٥٧). والمقتضب كما يدل اسمه صورة موجزة من تحفة القادم، وصانع هذا الموجز هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم البلفيقي المعروف بابن الحاج، وهو من معاصري ابن الأبار، ولد بالمرية (سنة ٦١٦) وتوفي بدمشق سنة ٦٦١، وكان محدثاً فاضلاً عارفاً مفيداً[1]، ولعل اقتضابه للتحفة إنما تمَّ بعد رحيله عن الأندلس رغبة منه في تعريف المشارقة (أو الشاميين خاصة) بشعراء أهل بلده.

وقد لفت انتباهي منذ سنوات أن الصفدي ينقل كثيراً عن تحفة القادم في كتابه الوافي بالوفيات، وأن ما ينقله أوفى مما يرد في المقتضب خبراً وشعراً، وبالمقارنة اتضح أنّ صانع المقتضب كان يحذف أحياناً قسماً من الترجمة، وأحياناً يحذف مقطعات كاملة أو يوجز في الاقتباس من الأبيات الشعرية، ولعل أكثر ما أصابه الاقتضاب هو حذف المقارنات والتعليقات التي تجيء استطراداً في الترجمة، ومن المرجح أنه حذف تراجم بعض الشعراء، فإن الصفدي ينقل عن التحفة تراجم لم ترد في المقتضب، وإذا صحّ ذلك فإن البلفيقي هو الذي تحكم في جعل عدد الشعراء مائة شاعر وشاعرة، وأنهم

(١) الوافي بالوفيات ٦: ١٣٥ ووهم الأستاذ إبراهيم الأبياري وهماً بالغاً حين جزم أنه من رجال القرن الثامن، وجعله أخاً لأبي البركات ابن الحاج، وقرر أنه اقتضب التحفة بعد نحو مائتي عام من وفاة ابن الأبار (مقدمة المقتضب: ب ــ و).

كانوا في الأصل أكثر عدداً. فمن صور إيجازه في العبارة بالحذف قوله: «وكان بمجلس أنس على نهر شلب بالجسر، وتعرضت إحدى الجواري لجواز الجسر، فلما بصرت به رجعت عن وجهها، وسترت ما ظهر من محاسن وجهها» وأصل هذه العبارة: «وحكى بعض الأدباء أن ابن سكن هذا كان بمجلس أنس على نهر شلب بالجسر، بحيث ينصب النهر السلسال في البحر العجاج، وينساب العذب الزلال في الملح الأجاج، وقد تعرضت هناك إحدى الجواري لجواز الجسر، وذكرته عيون المها بين الرصافة والجسر، فلما بصرت به رجعت عن وجهها، وسترت ما ظهر من محاسن وجهها».

وأما في ما أورده الوافي من أشعار فليس هناك اطراد في الزيادة ففي ترجمة الأندي (رقم: ٥) أورد المقتضب ثلاثة أبيات وزاد الوافي عشرة، وفي ترجمة ابن ورد أورد له البلفيقي بيتين وزاد الوافي أحد عشر بيتاً، وفي ترجمة ابن المنخل أصبح مجموع الأبيات عشرين بعد أن كانت سبعة، وفي ترجمة ابن رضا أصبح المجموع تسعة عشر بعد أن كانت الأبيات ثلاثة، وفي ترجمة ابن الفرس أورد له المقتضب أربعة أبيات وزاد الوافي أربعة وأربعين بيتاً لصاحب الترجمة ولغيره. وفي أحوال كثيرة تتساوى الأبيات عدداً في المقتضب والوافي (رقم: ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١) وفي حالات قليلة حذف الصفدي بعض ما احتفظ به المقتضب (رقم: ١٦).

لهذا رأيت أن استخراج المنقول عن تحفة القادم من كتاب الوافي يمثل خطوة أقرب إلى التحفة كما وضعها ابن الأبار، وبدأت أقوم بذلك محتفظاً بالترتيب الذي ورد في المقتضب، وقد اطلعت على كل ما طبع من أجزاء الوافي (١ ـ ١٧، ٢٢) قبل أن يطبع معظمها، كما اطلعت على نسخ من الوافي بعضها من تونس وبعضها من مكتبة أحمد الثالث، وجمعت القدر الأكبر من التراجم التي نقلها الصفدي، وفاتني الاطلاع على عدد من التراجم لعدم

توفرالأجزاء التي تحتويها من الوافي لديّ. ولم أكتف بهذه الخطوة بل رصدت جميع الكتب التي قدّرت أنها تنقل عن تحفة القادم إما مباشرة وإما بالواسطة وقارنتها بما جمعته؛ ولا ريب في أن الوافي يحتوي أكثر عدد من التراجم المنقولة، وربما كان اعتماد الآخرين ــ وبخاصة المشارقة ــ أو معظمهم عليه فيما نقلوه، وهذه الكتب التي رفدت الوافي في إعادة «بناء» تحفة القادم هي:

١ ــ الإحاطة للسان الدين ابن الخطيب.

٢ ــ رحلة ابن رشيد السبتي.

٣ ــ البدر السافر للأدفوي.

٤ ــ تحفة العروس للتيفاشي.

٥ ــ رحلة التجاني.

٦ ــ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي.

٧ ــ المنهل الصافي لابن تغري بردي.

٨ ــ نفح الطيب للمقري.

٩ ــ الحلل السندسية في الأخبار التونسية لابن السراج.

١٠ـ ريحانة الألبا للخفاجي.

وقد شرح ابن الأبار في ما تبقى من مقدمة كتابه طريقته في تأليف هذا الكتاب، فهو يترجم فيه لشعراء الأندلس الذين عاصروه، وللمعاصرة هنا معنيان:

(أ) جيل الشيوخ الذين ماتوا قبل أن يولد ابن الأبار، على أن لا يدخل فيهم من ترجم له أبو البحر صفوان في زاد المسافر، وأقدم هؤلاء وفاة حوالي ٥١٩، أو ٥٢٠.

(ب) جيل الذين ماتوا بعد ولادة ابن الأبار (أي بعد سنة ٥٩٥) إلى تاريخ الانتهاء من تأليف الكتاب.

ومعنى ذلك أن الذين ذكرت تراجمهم في التحفة شعراء كانت وفاتهم بين سنتي ٥١٩ ــ ٦٣٧، وذلك يتجاوز القرن بقليل.

وقد شرط المؤلف على نفسه ألا يترجم لمن تضمنته تصانيف السابقين من الأدباء، ولعله لم يخرج عن هذا الشرط إلا مرة واحدة حين ترجم لابن سعد الخير البلنسي، وهو من شعراء زاد المسافر؛ كما تعهد بإضافة الطارئين على الجزيرة من الغرباء (رغم قوله قبل أسطر: قصرته على أهل الأندلس بلدي) ولا نجد من هؤلاء الغرباء الطارئين سوى اثنين هما الكانمي (رقم: ٧١) وابن حمادو (رقم: ٨٦)، أما سائر الشعراء فهم أندلسيون، ثلاثة منهم لم تذكر نسبتهم إلى بلد، والآخرون موزعون على النحو الآتي:

١٦ شاعراً من بلنسية (أو نواحيها).

١٣ شاعراً من إشبيلية.

٩ شعراء من قرطبة.

٨ شعراء من المرية.

٧ شعراء من غرناطة.

٦ شعراء من كل من شريش ومن مالقة.

٥ شعراء من كل من مرسية ومن شلب ومن دانية ومن وادي آش.

٤ شعراء من جيان.

٣ شعراء من كل من الجزيرة الخضراء ومن جزيرة شقر.

شاعران من كل من شاطبة ومن سرقسطة.

شاعر واحد من كل من شنترين وشلطيش واستجة ولقنت وأبذة وميرتلة وميورقة.

وعلى الرغم من أن هذا التوزيع يدل على مشاركة أكثر المدن الأندلسية في الشعر فإن نصيب شرق الأندلس وجنوبها الشرقي هو الأكبر بين المناطق كلها.

وقد صرَّح ابن الأبار بأنه يحاكي ابن رشيق في تأليفه للأنموذج، وهذه المحاكاة إنما تتمثل في اقتصار كل مؤلف منهما على شعراء بلده، ولكن الأنموذج أغزر أخباراً وأكثر توافراً على التقييم النقدي من تحفة القادم، إلا أن التحفة يتفوق كثيراً على زاد المسافر في الناحيتين المذكورتين، وإن كان تحفة القادم معارضة حتى في التسمية لزاد المسافر؛ إذ لا يعدو أن يكون هذا الأخير مختارات شعرية في الأكثر.

ويقول ابن الأبار إنه حاول أن يتجنب السجع في كتابه، وهذا هو الغالب، وقياساً على كتاب التكملة والحلة وأعتاب الكتاب يمكننا أن نطمئن إلى أنّ ابن الأبار لم يكن يؤثر السجع، ولم يركب هذا الطريق إلا في القليل النادر، حسبما فعل في ترجمة شيخه أبـي الربيع ابن سالم إذ قال: «علم الأعلام، واللعوب في جده بأطراف الكلام، الذي فاز بالجنة يوم فاد، وأفاد علوم السنة في ما أفاد»، وفي ترجمة صديقه أبـي المطرف ابن عميرة إذ يقول: «فائدة هذه المائة، والواحد يفي بالفئة، الذي اعترف بأمجاده الجميع، واتصف بالإبداع فماذا يوصف به البديع...».

أما المعايير التي اتخذها في اختياره للشعر فهي روعة التشبيه، وجمال التشبيب «إلى فنون ذوات فتون من الآداب ساحرة»، وهذا كله خاضع لعدة أمور منها: ذوق المؤلف نفسه، والذوق العام في عصره، والمتيسر من الشعر لدى جمع الكتاب، ولست بصدد الحكم على مستوى الشعر واتجاهاته في الأندلس حينئذ، إذ ليس يمثل هذا الكتاب مهما يكبر حجماً إلا مختارات يسيرة من مجموع كبير ضاع.

وفي هذا الكتاب يشير ابن الأبار إلى كتابين من كتبه وهما: التكملة وإيماض البرق؛ وقد نستنتج من ذلك أنه ألفه بعدهما، ولكن هذا يتعارض مع قوله في المقدمة «وجعلته باكورة ما بين يديّ في هذا الفن» وهذه العبارة تعني

في الأرجح أنه أول كتاب ابتدأه في تراجم الشعراء، أي أنه قبل إيماض البرق وقبل خضراء السندس وهو دون ريب قبل الحلة السيراء الذي لم يبدأ به إلا حين رحل إلى افريقية. وللخروج من هذا التعارض يمكن القول إنه بدأ تحفة القادم قبل إيماض البرق، ولكنه عمل في الاثنين معاً، ولم يكتمل تحفة القادم إلا بعد هجرته إلى افريقية سنة ٦٣٦، إذ ظلّ يزيد فيه ما يحصله من روايات، والدليل على ذلك قوله: أنشدني أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالعزيز الشاطبي صاحبنا بحضرة تونس (ص ٤٥) أو حدثنا أبو عبدالله بن عبدالخالق الخطيب بالمهدية، وهكذا.

وقد رتب الشعراء في كتابه بحسب الوفاة، ولم يخلّ بذلك إلا فيما ندر، فترجمة أبي الصلت (المتوفى سنة ٥٢٠) تأتي قبل ترجمة ابن الطراوة (المتوفى سنة ٥٢٨) وتتلوها ترجمة ابن العريف (٥٣٦) ثم ابن ورد (٥٤٠) ويجري الكتاب على هذا النسق، إلا حين يجهل المؤلف سنة الوفاة.

ولم يذكر ابن الأبار مصادر مكتوبة يعتمدها سوى الأنوار الجلية في تاريخ الدولة المرابطية لابن الصيرفي، وسائر المعلومات إنما حصلها رواية، وأكثر روايته عن شيخه أبي الربيع ابن سالم ثم عن أبي عمر ابن عياد، ومن رواته ابن الصفار وأحمد بن علي القاضي القرطبي وأبو سليمان ابن حوط الله والخطيب أبو القاسم ابن معاوية وأبو القاسم ابن حسان الكلبي وغيرهم.

ويطيب لي قبل أن أختم هذه المقدمة الموجزة أن أشكر السيدة نرمين عباس التوني والآنسة ناهد جعفر والأستاذ ياسين عياش لمعونتهم لي في تصحيح الملازم وفي إعداد الفهارس، فأما صديقي الأستاذ الحاج الحبيب اللمسي صاحب دار الغرب الإسلامي، فإن جهده في خدمة تراثنا العربي الإسلامي يستحق كل ثناء وتقدير، جزاه الله خيراً، ووفقنا جميعاً إلى مرضاته.

عمان في ١٥ حزيران (يونيه) ١٩٨٦ **إحسان عباس**